«أين مصر الفرعونية من العروبة المصرية ؟»

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

نعم سوف أظل عربيًا .

إن إيمانى بالعروبة وقد اختلطت وتفاعلت مع القيم الإسلامية كمنطلق لفهم معنى القومية العربية ، هو وحده الذى سوف يظل الدستور الفكرى الذى ينبع منه جميع أنواع الرحيق الفكرى ، الذى جعلنى أنظر إلى المستقبل بهدوء وثقة .

الإسلام يا بنى ليس لغة المحبة . إنه أكثر من ذلك ، إنه لغة أساسها أن يخاطب كلاً على قدر عقله ، وأن نتعامل مع كل فقط باللغة التى يفهمها ويعيها ، وتسمح له بأن يعرف معنى النبل والمثالية ، إن لغة قيمنا وتقاليدنا هى لغة التضحية والوظيفة العالمية، ولكن بلغة الواقع والتجاوب مع حقيقة الطبيعة البشرية . ألم يوصف ديننا بأنه دين الفطرة؟ إنه معادلة ترتفع عن لغة الضعف والخنوع ، وتأبى إلا مواجهة الأشياء بأسمائها الحقيقية ، هل تفهم يا بنى معنى دعوة الرسول ﷺ إلى الهجرة وحمل السلاح ؟ هناك مواقف تأبى إلا القوة وترفض المهادنة ، ولكن من يستمع ومن يعى ، دلالة هذا التاريخ الذى هو صفحة وجودنا ، وقصة المعاناة التى عاشها آباؤنا ومنها انطلق ذلك المارد الذى التقت فيه الشهامة العربية بالقيم الإسلامية ؟

لا بد وأنك يا بنى تتساءل : ترى ماذا يريد هذا الكاتب ؟ وهو يدور بنا فى حلقات متتابعة تارة لنعيش فى الماضى بعظمته وقوته ، وأخرى لنعيش فى الحاضر بما يحمله من عناصر للتمزق والفرقة ، ثم إذا بنا نُحلق فى سماء المستقبل لننطلق فى متاهات أقرب إلى التنجيم منها إلى استقراء الواقع ؟

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد **105** ، فى **12** آيار- يونيو - **1985** ص **26** وما بعدها .

تساؤل مشروع ، ولكن دعنى أُذكرك بأن الماضى هو قراءة للحاضر ، والحاضر ليس إلا تلمس لعناصر التطور الذى سوف يحمله المستقبل ، أما عن المستقبل فهو الحركة المعاصرة بكل قوتها وإيمانها تتجه إلى الإمام وقد استمدت قوتها من مأساة الحاضر وخبرة الماضى . وهكذا تنصهر جميع هذه الأبعاد فى بوتقة واحدة حيث يجتمع التساؤلين : لماذا وكيف ؟ لماذا الفشل وكيف نتخطى ذلك الفشل لتحقيق النجاح ؟

أ - التساؤلات التى طرحناها عديدة ، وقد أجبنا على البعض منها بدقة وبوضوح ، ولكن البعض الآخر لم نتوقف إزاءه بالتحليل الكافى ، أحد هذه التساؤلات يدور حول هذه الاستفهام : ما هى الأدوات التى يجب أن تستند إليها الحركة القومية فى تعاملها مع الواقع بقصد تحقيق تلك المثالية التى تسعى إليها ؟

مما لا شك فيه أن نقطة البداية هى أن كل موقف يملك خصائص ، وإن هذه الخصائص هى وحدها التى تسمح ببناء خطة الحركة أى خطة التعامل مع الموقف ، وأحد عناصر هذه الخطة هى أدوات التعامل ، على أن هذه الحقيقة لا تمنع من ضرورة الانطلاق من تصور عام لأدوات هذا التعامل ، استنادًا إلى طبيعة الواقع العربى والحركة القومية .

هناك فى قناعتنا أربع أدوات أساسية ، يجب أن تكون على وعى بوضع كل منها فى إطار الحركة القومية بصدد الواقع العربى :

أولاً : الدولة القائد .

ثانيًا : الأحزاب السياسية المؤمنة بالحركة الوحدوية .

ثالثًا : الطليعة الثورية فى كل مجتمع عربى تؤمن بهذه الحركة .

رابعًا : الطبقة المثقفة .

أول هذه العناصر هو تلك الدولة التى يجب أن تتمركز حولها جميع القوى فى أدائها ومساندتها لدورها القيادى ، ولتحمل نتائج ذلك الدور بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مخاطر والتزامات ومسؤوليات ، والحركة الوحدوية تتميز بخصائص ثلاث :

1- هى حركة سياسية .

2- وهى حركة سياسية جماعية .

3- وهى حركة سياسية جماعية فوق شعوبية .

ومن ثم ، فلا بد أن تملك قيادة تعبر عن هذه الخصائص ، لا يكفى القائد الفذ أو الموهوب ولا تكفى الجماعة المؤمنة بالحركة الوحدوية ، وإنما يجب أن توجد تلك الدولة التى تملك من القدرات التكنولوجية والاقتصادية والبشرية ما يسمح لها بأن تقود العمل الوحدوى ، وأن تملك أيضًا ذلك الموقع الذى يسمح لها بأن تمد يدها لكل أجزاء الوطن

العربى بالمساعدة وقت الضرورة ، وأن تمتد إليها تلك الأجزاء أيضًا بالمساندة والمشاركة عندما تدق ساعة الحاجة ، ويجب أن يحاط كل ذلك بإطار من الهيبة التى يفرضها التاريخ ويبرزها التراث القومى والخبرة الماضية .

فمن يستطيع أن يمتلك جميع هذه العناصر فى الوطن العربى ؟ ، ألا يقودنا هذا إلى وظيفة «مصر» كدولة قائد للعمل الوحدوى ؟ ونسرع منذ البداية لنحدد موقفنا بصراحة ووضوح ، فمن الوجهة التنظيرية نرفض أن نصف ذلك الواقع بما يسميه بعض المفكرين بكلمة «الدولة القاعدة » فهذا اصطلاح غير موفق ، لأن أى دولة قادرة واجب عليها أن تصير قاعدة لانطلاق العمل الوحدوى ، ولكن الذى نريد أن نؤكد عليه هو تلك الأداة التى يجب أن تقود العمل الجماعى الكلى ، بما يعنيه ذلك من حقوق والتزامات ، إن كل دولة فى الكيان العربى هى دولة قاعدة للعمل الوحدوى ،أو هى صالحة لأن تكون كذلك. دولة كسورية أو ليبيا قادرة على أن تكون دولة قاعدة ، ينطلق منها مفهوم العمل الوحدوى ، بجميع معانيه ولكن الدولة القائد لا يمكن أن تكون سوى واحدة ، دولة واحدة تُعقد لها الزعامة ، وسورية بضعفها الاقتصادى والتكنولوجى والمهنى ، و «ليبيا» برخاوتها البشرية لا تصلح ، **ولن تصلح ، لأن تؤدى وظيفة الدولة القائد** ، لو اتحدت «سورية مع العراق » فمن الممكن طرح هذا التساؤل ولكن فى الواقع المعاصر ، ليس هناك سوى « مصر التى خُلقت لتؤدى هذه الوظيفة» .

كذلك فإننا عندما ننطلق فى تأكيد وظيفة « مصر » كدولة قائد للعمل الوحدوى ، فإن ذلك لا ينبع من انتمائنا الشعوبى لأرض الفراعنة ، ولكن من ولائنا الوحدوى لأرض العروبة بأقصى مبالغاته وأكثر تطرفا ، حيث لا موضع لمفهوم الانتماء الشعوبى أو الولاء الطائفى ، الإيمان القومى والقناعة بالمصير الوحدوى ، هى وحدها التى تحدد مصادر إدراكنا بهذه الوظيفة .

ب – ولكن أين ذلك من الحديث المستمر عن الطبيعة الفرعونية للشخصية المصرية ؟

فلنبدأ نتحدث لغة التاريخ ، ومعنى ما يقدمه من دروس ، والتاريخ خير معلم.

للإجابة على مثل هذه الاستفهامات أول درس نستطيع أن نستشفه ونكتشف معامله الخفية هو أن التشكيك فى عروبة «مصر » لم يبرز تاريخيًا ، وبصفة خاصة فى التاريخ الحديث إلا فى أعقاب الهزائم ، وكما لو كان لتبرير قوقعة « مصر » على نفسها القرنين التاسع عشر والعشرين حافلان بأكثر من نموذج واحد ، أول نموذج واضح فى دلالة المباشرة يرتبط بالثورة العرابية ، فطيلة القرن التاسع عشر ، لم يشكك أحد فى أن « مصر » جزء من المجتمع العربى ، ومن تلك الأمة العربية ، والكتابات عديدة بذلك الخصوص ،

والوثائق التى كُشِفَ عنها النقاب ، تؤكد أن قادة الثورة العرابية كان تفكيرهم أساسه أن تلك الثورة هى مقدمة لإنشاء الدولة العربية الموحدة ، التى تضم أرض الشام والسودان والحجاز إلى جوار مصر ، بل وتتصور أن ذلك التكوين السياسى الجديد سوف يأخذ صورة الدولة الفدرالية الذى يعيد للذاكرة النموذج السويسرى .

وتؤكد لنا كتب التاريخ أن « محمود سامى البارودى » فى أحاديثه الخاصة كان يردد أن « فكرة إعلان الجمهورية فى «مصر » كانت تتضمن انضمام سورية إليها ثم الحجاز » والذى يعنينا أن ندخله فى الاعتبار هو أن المفهوم الأساسى للحركة السياسية كان ينبع من فكرة الوحدة السياسية ، وليس من مفهوم الاستقلال المصرى ، وأن قيادة الثورة العرابية وهى تؤمن بذلك قررت أن تخفى أهدافها الحقيقية حتى لا تصطدم بالقوى الدولية العظمى ، وهى تعلم موضع تلك القوى من حركة الوحدة العربية كما صاغه ، وحاول قبل ذلك أن يطبقه ، سواء على بك الكبير « أو « محمد على » بمساعدة ابنه « إبراهيم باشا» . رغم ذلك ، فإن ذلك التصور القيادى المصرى تسرب إلى الأوساط البريطانية فى القاهرة ودمشق والقدس ، وقامت السلطات المسؤولة بإبلاغه إلى لندن والوثائق المؤكدة لذلك موجودة حتى الآن تحت تصرف الباحثين ، فى أعقاب الهزيمة بدأ يبرز فى الإدراك المصرى منطق جديد ، وهو منطق دافع عنه فى مرحلة أولى « عبد الله النديم » ، ثم تغلغل تدريجيًا فى الفكر السياسى المصرى ، ليسيطر على تقاليد السياسة المصرية ، خلال النصف الأول من القرن العشرين . وقد استطاع أن يجد فى أسماء عديدة لها وزنها أبواقًا تؤكد هذا الفكر ، سواء عن قناعة ذاتية أو فهم خاطئ أو مسايرة لأهداف المحتل البريطانى ، حتى جاء «عبد الناصر» ووضع حدًا لهذا الإدراك .

«عبد الله النديم » هو أول من طرح هذا الموضوع ، ولكن علينا أن نعترف بأن ما طرحه « عبد الله النديم » لم يكن مداره هل مصر عربية أم فرعونية ؟ ولكن محور تساؤلاته هو هل العظمة العربية والتراث العربى قد اندثرا إلى غير رجعة أم لا ؟ بما يعنيه ذلك أن على « مصر » إن أرادت أن تعيد بناء نفسها أن ذلك لن يتم إلا من منطلق قدراتها الذاتية فقط ، الإجابة التى قدمها المفكر المصرى استحدث مصادرها من المفاهيم الأوربية . والنموذج الذى تبلورت حوله تلك المفاهيم استمد إطاره من الحضارة الرومانية ، فكما اندثرت الحضارة الرومانية لتحل محلها دول قومية ، فإن العالم العربى قد اندثر ولن يعود وعلينا أن نعيد بناءنا على هذا الأساس ، المجتمع العربى قد دُفن ولن يعود بما له وبما عليه .

هذا التصور ينبع من الفكر الغربى ومن خبرة الدولة القومية الأوربية حيث هذه تقوم

على أنقاض وضد الدولة الأوربية كما قدمتها تقاليد العصور الوسطى ، فى إطار تصور الدولة العالمية الكاثوليكية ، على أن هذا المفهوم ازداد تفحلا عقب ذلك ، وإذا به أضحى قطيعة فى كل العلاقة بين « مصر » والعروبة ، لقد اختفت القناعة بالانتماء العربى ، ومظاهر التعبير عن هذا الاختفاء عديدة ومتفاوته من حيث درجات الرفض ، ومستويات المواجهة لمفهوم الانتماء العربى ، وهو يصل فى أحد تطبيقاته إلى حد جعل العلاقة بين مصر والعروبة علاقة تناقض وتضاد ، ويجعل أصحاب هذا الرأى يطالبون بقطع كل علاقة مع كل ما له صلة بالعرب ، **وقد وصل الأمر إلى أن جريدة المقطم عام 1936 تبنت دعوة المصريين لعدم الاهتمام بالمشكلة الفلسطينية** وجاء أكثر من مؤرخ واحد يذكرنا بأن الإسلام مسؤول عن إهمال تاريخ مصر القديمة ، ووصل هذا التطور حتى لدى كتاب معتدلين إلى آفاق بعيدة .

ففى كتاب « توفيق الحكيم » عن «عودة الروح » لا يتردد الأديب المصرى فى أن يعلن « . . . الروح المصرية هى تلك التى تفهم الأهرام وليست تلك التى تتحدث عن «خالد بن الوليد » أو « عمرو بن العاص » . .كان المصريون فى ثورتهم يستمدون شعورهم بعاطفة الاستقلال من مصر المستقلة ، استنجدوا بالفراعنة لأن عاطفة الاستقلال لا تربطهم إلا بهؤلاء .

أما العاطفة التى تربطهم بالعرب فهى عاطفة أخرى ، أما والأمر أمر العزة القومية والاستقلال فلا شىء غير مصر المستقلة القديمة ، هى التى تلهمنا الروح وتمدنا بالذكريات القديمة القوية المضيئة التى تبعث فى النفس روح الحماس ، وسوف يصل هذا الاتجاه إلى قمته مع « سلامة موسى » عندما يصرخ فى كتابه « اليوم والغد » قائلاً : « ليس علينا للعرب أى ولاء .. يجب أن يعرفوا أننا أرقى من العرب .. فلنولى وجوهنا شطر أوربا» . حتى «لطفى السيد» و «عبد العزيز فهمى » لم يتردد كل منهما من جانبه أن يهاجم اللغة العربية وأن يطالب باستخدام الحروف اللاتينية ، ثم جاء « طه حسين »[1] ليعلن أن مصر إنما تنتمى إلى ثقافة البحر الأبيض المتوسط ، وهو نفس المفهوم الذى سوف يردده عقب ذلك بثلاثين عامًا « آبا إيبان » وزير خارجية العدو الصهيونى ، وهو يحاول أن يحدد موضع « إسرائيل » من خريطة منطقة الشرق الأوسط .

نموذج آخر لنفس هذا الواقع سوف يبرز فى مصر ، عقب حزيران يونيو عام 1967

(1) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، أ.د. محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية لبنان ؛ حصوننا مهددة من داخلها ، المؤلف نفسه ؛ سلسلة الغزو الفكرى فى المناهج الدراسية ، المؤامرة على الإسلام فيما كتبه طه حسين إعداد د . وفاء محمد رفعت وآخرون ، دار الوفاء المنصورة .

عندما يُقدر لأنغام الفرعونية أن تصدح من جديد خافتة فترة انكسار « عبد الناصر» قوية صارخة خلال فترة حكم « السادات » لتنتهى بسياسة « كامب ديفيد » وخروج « مصر » من الصف العربى .

ومرة أخرى سوف نجد هذا الاتجاه وقد احتضنه أكثر من اسم واحد ، كان لها تاريخها ومجدها السابق ولو فى معنى معين ، فلنتذكر أسماء « كتوفيق الحكيم و«حسين فوزى » و «نجيب محفوظ » دون الحديث عن « لويس عوض » و « أنيس منصور » وغيرهما .

ما هو منطق هذا الفكر المصرى الذى تواضعنا على تسميته الشخصية الفرعونية لوظيفة « مصر « التاريخية ؟ مما لا شك فيه أن «مصر » دولة لها تاريخ قديم ، وتملك تراثها الذاتى الذى سبق الإسلام[1] .

والمجتمع المصرى يملك طبيعته المتميزة ، ولنتذكر على سبيل المثال الخصائص السلوكية للمواطن الذى ينتمى إلى تلك المنطقة : الاعتدال ، عبادة السلطة ، المهارة المهنية والفنية ، الإبداع الصناعى ،كذلك فإن «مصر « بحكم موقعها وتاريخها تملك انتماءات ثلاثة : **فهى دولة أفريقية** حيث ينتمى إقليم وادى النيل إلى تلك القارة ، وحيث تبعيتها لمياه النيل تجعل من «مصر» دولة مترابطة مع وسط أفريقيا **و هى دولة بحر متوسطية** ، ويكفى أن نتذكر أنها تقع على شواطئ البحرالمتوسط ، بل وفى لحظة معينة كانت عاصمتها أى عاصمة مصر هى عروس البحر المتوسط ، أى مدينة الإسكندرية .

أليس تاريخ مصر فى العصور السابقة على الفتح العربى هو تاريخ التعامل بين شاطئ البحر المتوسط الجنوبى أى مصر والشاطئ الشمالى ، أى أثينا والمدن اليونانية تارة وتارة أخرى روما ؟ **الانتماء العربى ، ليس** إلا أحد أجزاء ذلك الإطار حيث يخلق التطور نموذجًا تاريخيًا مهما ارتفعت قيمته وأهميته ، فهو لا يعدو أن يكون أحد النماذج والتطبيقات التى عرفتها الدولة المصرية فلا هو أهمها ولا هو المسيطر عليها .

والتنازع بين الانتماءات الثلاثة لا يمنع من أن من حق مصر أن تفضل أيا من هذه الانتماءات تبعًا لمصالحها ولمصالح شعبها ، والواقع أن تعدد الانتماءات لأى مجتمع سياسى ليس ظاهرة جديدة أو فريدة فى نوعها فى تاريخ البشرية . فرنسا تذكرنا بنموذج مشابه حيث تتمزق بين انتماء أوروبى وانتماء أطلنطى ، ثم انتماء بحر متوسطى. تفضيل أى من

---

(1) الذى سبق بعثة محمد ﷺ ؛ لأن شعب مصر كغيره من شعوب الأرض ينتسب إلى ذرية المسلمين الناجين من الطوفان مع نوح عليه السلام ، (تاريخ الأمة المسلمة الواحدة) ضمن سلسلة أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، د . وفاء محمد رفعت وآخرون ، دار الوفاء . المنصورة .

هذه الانتماءات بما يعنيه ذلك من ترجيح كفة سياسة معينة ، وجعل الانتماءات الأخرى تنحدر إلى مستوى ثانوى من حيث الأهمية أن ينبع من متغيرات الموقف وخصائص المصلحة العليا فى لحظة معينة ، بحيث تفرض التضحية ولو مؤقتًا ببعض هذه الانتماءات على حساب الأخرى .

هذا المنطق قد يبدو لأول وهلة يملك قدرًا من الوجاهة ، يعنينا أن نتناوله بالتحليل والتفنيد ؛ لأنه فى حقيقة الأمر أحد مظاهر التسميم السياسى الذى عاشه ويعيشه الإدراك المصرى ، وبصفة خاصة عقب حرب أكتوبر عام 1973 ،أخطر ما يجب أن نلاحظه بذلك الخصوص أمران : **الأول** أن هذا الفكر تصدى له فى مرحلته الأولى أى قبل مجىء عبد الناصر والعقاد . واستطاع بمفرده أن يقف فى مواجهته يمنع موجاته من أن تغرق المجتمع المصرى ، ولكن عقب السادات لم يجد الفكر المصرى بعد ذلك العملاق القادر على أن يقف من هذا الفكر موقف الرفض الثابت بصلابة وقوة وإيمان العقاد وفاعليته . الأمر الثانى أن هذا الفكر قبل مجىء عبد الناصر لم يستطع أن يرتفع ليتحول إلى سياسة إقليمية محددة المقاطع مقننة الجزئيات ، ولكن عقب الرئيس السادات استطاع أن يتبلور فى سياسة إقليمية واضحة ، من حيث مقدماتها ونتائجها ، قادت المنطقة إلى العديد من المآسى التى لا نزال نعيش أحداثها .

لنستطيع أن نطرح وبتفصيل كاف مختلف العناصر التى يثيرها المنطق السابق ، ولإثبات كيف أنه يتجافى مع مصالح الشعب المصرى ذاته ؛ يتعين علينا أن نتناول بالتحليل أربعة منطلقات أساسية :

أولاً : العلاقة الوظيفية بين الحقيقة الشعوبية والتكامل القومى .

ثانيًا : طبيعة العلاقة بين التاريخ السابق على الدعوة الإسلامية والتطور اللاحق لتلك الدعوة .

ثالثًا : مفهوم الوظيفة الحضارية الإقليمية لمصر، وعلاقته بالبناء التاريخى للعروبة المصرية .

رابعًا : سياسة الانتشار الإقليمى وموضعه من المستقبل الحضارى للشعب المصرى .

ترى ... هل آن لنا أن نبنى نظريتنا المتكاملة فى فلسفة الوحدة العربية ».